الانفتاح على الرأي الآخر

<"xml encoding="UTF-8?>

حين تذهب إلى السوق لشراء سلعة تحتاجها كسيارة أو جهاز حاسب آلي، أو أي شيء آخر، ولا تجد في السوق إلا نوعا واحدا من تلك السلعة، فإنك ستشتريه سدا للحاجة، وقد لا تجد داعيا لتفحص ميزاته والتدقيق في خصائصه، فأنت ستقتنيه على أي حال، لأنه الخيار الوحيد أمامك.

أما إذا رأيت أمامك أنواعا مختلفة من السلعة التي تريدها، فستبذل جهدا لفحص ميزات كل نوع، ومدى امتيازاته، ثم تختار الأفضل والأنسب لك من بين الأنواع المعروضة عليك.

إن الفارق بين الحالتين واضح، ففي الأولى أنت لا تضمن الحصول على الأفضل، وقد لا تهتم لمعرفة خصائص ما تختار. أما في الحالة الثانية فإن تعدد الخيارات يمنحك فرصة البحث والمقارنة، ويجعلك أكثر فهما لما تختار.

وهكذا الأمر لو كنت تبحث عن مشروع اقتصادي للاستثمار، أو برنامج سياحي لمنطقة معينة، أو علاج لمشكلة صحية، فإن تعدد الخيارات في كل مجال يوفر لك أفضل الفرص، وأعلى درجة من المصلحة.

هذه المعادلة الواضحة في القضايا المادية، تنطبق أيضا على الصعيد الفكري والمعرفي، فإذا كنت مهتما بقضية فكرية، ووجدت نفسك أمام رأي واحد في معالجتها، فقد تعتنق ذلك الرأي دون كثير من التأمل والتفكير، أما إذا تعددت أمامك الآراء والأفكار، فسيدفعك ذلك للدراسة والمقارنة فيما بينها، والبحث عن الرأي الأفضل والفكرة الأصح. وبذلك تكون أكثر إدراكا ووعيا بالرأي الذي تعتنقه.

فالنظر في الآراء المختلفة يتيح فرصة البحث عن الرأي الأفضل، ويوفر درجة أعلى في فهم ومعرفة الرأي المختار.

لذلك يدعو القرآن الكريم الإنسان إلى التفكير فيما يتبنى من آراء ومعتقدات، فلا يجعل نفسه أمام اتجاه واحد إجباري، ولا ينغلق على موروثاته من آبائه وأسلافه، دون دراسة وتمحيص، ولا يرفض الانفتاح على أي فكرة ومحاكمتها على ضوء العقل، لقبولها إن كانت أصح وأفضل.

إن الله تعالى يبشر عباده المنفتحين فكريا، والذين يدرسون مختلف الآراء، ليتبنوا أفضلها وأحسنها، بأن منهجية الانفتاح هي التي ستقودهم إلى الهداية، وتمكنهم من استثمار عقولهم، واستخدامها بالشكل الصحيح.

يقول تعالى: ﴿ ... فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ 1.. إنهم يستمعون القول، أي يقصدون الإصغاء إليه باهتمام، وليس يسمعون بشكل عفوي عابر، واستخدام القرآن الكريم للفظ يستمعون يلفت إلى ذلك.

والقول جنس يشمل كل قول، والمقصود به الكلام الذي يعبر عن فكرة ورأي.

جاء في تفسير الآية الكريمة

"الآيتان المذكورتان اللتان وردتا بمثابة شعار إسلامي، بينتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الاختيار في مختلف الأمور. ففي البداية تقول ﴿ ... فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ 2 ثم تعرج على تعريف أولئك العباد المقربين بأنهم أولئك الذين لا يستمعون لقول هذا أو ذاك ما لم يعرفوا خصائص وميزات المتكلم، والذين ينتخبون أفضل الكلام من خلال قوة العقل والإدراك، إذ لا تعصب ولا لجاجة في أعمالهم، ولا تحديدا وجمودا في فكرهم وتفكيرهم، إنهم يبحثون عن الحقيقة وهم متعطشون لها، فأينما وجدوها استقبلوها بصدور رحبة، ليشربوا من نبعها الصافي من دون أي حرج حتى يرتووا.

الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة ومناقشة مواضيع وآراء بقية المذاهب، إذ أنهم يخافون من أن تكون حجة الآخرين أقوى من حجتهم الضعيفة، وهذا ما يسبب فقدان الاتباع الذين قد يلتحق بعضهم بالمذاهب الأخرى الأفضل.

إلا أن الإسلام ــ كما شاهدنا في الآيات المذكورة أعلاه ــ ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة في هذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد الله الحقيقيين، الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، ولا يستسلمون لشيء من دون قيد أو شرط، ولا يتقبلون كل وسواس. الإسلام الحنيف يبشر الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السيء، وإنما ينتخبون الأحسن ثم الأحسن من كل قول ورأي".

وعلى ضوء الآية الكريمة، وردت أحاديث وروايات، تشجع الإنسان على البحث عن الحقيقة والصواب من أي مصدر كان، وهذا يعني الانفتاح على مختلف المصادر وإن كانت في اتجاه آخر مخالف، بل هو ما تصرح به الأحاديث والنصوص.

فحينما يقول حديث مروي عن أبي هريرة عن رسول الله : «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها».

والضالة هي الشيء الذي يفقده الإنسان فيبحث عنه، ويعلق الإمام أبو الحسن الحنفي السندي في شرحه لهذا الحديث قائلا: "أي مطلوبة له بأشد ما يتصور في الطلب، كما يطلب المؤمن ضالته، وليس المطلوب بهذا الكلام الإخبار إذ كم من مؤمن ليس له طلب للحكمة أصلا، بل المطلوب به الإرشاد كالتعليم، أي اللائق بحال المؤمن أن يكون مطلوبه الكلمة الحكمة".

وورد عن الإمام علي أنه قال: «الحكمة ضالة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها». وفي كلمة أخرى قال : «الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق».

وهناك رواية جميلة مذكورة في عدة مصادر عن نبي الله عيسى بن مريم أنه قال: «خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقاد الكلام».

فما دام الإنسان يمتلك عقلا يميز به الصواب من الخطأ فلا خوف من الانفتاح الفكري، على مختلف الآراء والأفكار، والمهم هو دراسة الرأي والفكرة، بغض النظر عن مصدرها، وعن الموقف منه3.

_____

1. القران الكريم: سورة الزمر (39)، الآية: 17 و 18، الصفحة: 460.
2. القران الكريم: سورة الزمر (39)، الآية: 17، الصفحة: 460.
3. الشيخ حسن الصفار * صحيفة اليوم 26 / 11 / 2003م - 1:00 م